الانزياح

في

الدراسات الغربية الحديثة

شهدت أوربا نهضة ملموسة في الدراسات اللغوية والألسنيات تمخض عنها ظهور الاتجاهات النقدية : الأسلوبية والتفكيكية والبنيوية ، وظهور عدد من المصطلحات اللغوية كالتناص والانزياح والمفارقة ن وتم ذلك نتيجة لظهور عدد من علماء اللغة واللسانيات الذين استفادوا كثيرا من تراثنا العربي الأدبي والنقدي .

لقد حدثت القطيعة مع المناهج النقدية التقليدية وحدث الخروج والتمرد على الرومانسية لتجاهلها موضوعها النقدي، وهو النص الأدبي، وانشغالها بعناصر وإشكاليات أخرى خارج النص الأدبي ونعني بها ما يتعلق بصاحب العمل الأدبي ومبدعه **مثل:**

- السيرة الذاتية

- الدراسات النفسية

- الدراسات الاجتماعية

كما كان لهذه القفزة الهائلة في حقل الدراسات اللسانية أثر ملموس في ظهور مناهج النقد الحديثة التي أشرنا إليها عاليه . يتضح ذلك فيما يلي :

ففي عام (١٩١٦) ظهرت دراسات العالم اللساني دي سوسير تحت عنوان (محاضرات في اللسانيات العامة) تحدث فيها عن رؤيته وما توصل إليه من نظريات جديدة ، ظهرت في إثره وعلى نهجه مدارس نقدية تولي اهتمامها دراسة العناصر الداخلية للنص الأدبي ومحتواه مبتعدة عن أي مؤثر خارجي.

وقد اهتمت هذه المدارس بالمستوى اللساني للنص (ما يشتمل عليه من مفردات وأصوات وتراكيب) على اعتبار أنه المستوى الوحيد الذي من الممكن إخضاعه لأسس الدراسة العلمية المنهجية التحليلية والوصول إلى نتائج يمكن التحقق منها علمياً وإجرائيا والوثوق في مصداقيتها.

وكان من نتيجة هذه الدراسات أن ظهرت المدرسة الشكلية الروسية في الربع الأول من القرن الماضي ممثلة في دراسات المنظرين الروس مثل (فكتور شكلوفسكي) و(بوريس اخنباوم) و(يوري تاينانوف) وتزامن مع هذه المدرسة الروسية ظهور (النقد الجديد) في أمريكا على يد عدد من النقاد الأكاديميين أمثال (كلينث بروك) و(روبرت مارن) و(جون بورسر) و(ألن تيت) في نفس الفترة الزمنية.

يضاف إلى ذلك ظهور ما عرف بالنقد النصوصي، في كتاب (معنى المعنى) المنشور عام (١٩٢٢) لمؤلفه الناقد الإنجليزي أي.أ. رتشاردز بالاشتراك مع الناقد سي. كي.أوغدن.

وقد ركزت هذه المدارس النقدية على دراسة (الأدبية) التي هي مجموعة العناصر الشكلية الداخلية التي تجعل من نص معين نصاً أدبيا.

وقد شاع مصطلح (الشعرية) بدلاً من الأدبية بتأثير مباشر من كتابات (رومان ياكبسون)، وعرفت دراسته (بعلم الأسلوب الشعري) التي تسعى إلى اكتشاف قوانين النصوص الأدبية على نحو عام.

ثم تزايدت الاتجاهات النقدية ذات المرجعيات الأسلوبية والشكلية والبنيوية خلال أكثر من نصف قرن من الزمان ، على يد (جان كوهين) و (رولان بارت) و (تودوروف) و (جوليا كريستيفا. وتضمنت مؤلفاتهم دراسات واضحة لمقاربات نصوصية تحليلية وصار النقد على درجة عالية من الموضوعية.

إن كثيرا من هذه الدراسات أخذت في اعتبارها التركيز على النص الادبي ومضمونه ، والعوامل اللغوية والبلاغية التي أثرت فيه دون النظر إلى صاحب العمل الأدبي ومبدعه ، معتبرين أن المؤلف ينتهي دوره عند كتاب العمل الأدبي وإخراجه إلى حيز الوجود ، مما يعني – في رأيهم – موت المؤلف ، وابتعاده عن الساحة حيث انتهى دوره بالفراغ من تشكيل عمله الأدبي وتدوينه .

والذي ينبغي أن نشير إليه أن المدرسة الشكلية اهتمت بدراسة ما يعرف بـ(الانزياح الأسلوبي)، وهو عبارة عن خرق لمعايير الاستخدام الدلالي للكلمات التي ترد في لغة الحديث اليومي . فإذا علمنا أن قوانين النحو ثابتة لا تخضع للانزياح لكونه خروجا على المعيارية النحوية للغة، فإنه موجود على المستوى الدلالي، على اعتبار أن الانزياح الدلالي يكمن في كسر مجموعة العلاقات التقليدية التي تنشأ بين الكلمات خلال عملية استخدامها العادي ووضعها ضمن علاقات جديدة خاصة بالنص الأدبي.

(وقد حدده جان كوهين بأنه انحراف عن معيار هو قانون اللغة الاعتيادية أو المألوف، يحمل قيمه جماليه... فهو خطأ ولكنه كما يقول بزونو "خطأ مقصود").

إن المدرسة الشكلية بتأكيدها على مفهوم (الانزياح) والقيمة الجمالية، تكون قد نقلت الدراسات اللغوية نقلة كبيرة وفتحت آفاقا رحبة لمزيد من البحث وتناول قضايا اللغة آخذين في الاعتبار أن اللغة متطورة نامية وقضايا الأدب والنقد مطردة تتأثر دائما بظروف العصر ومتطلباته .

كما أن " ظهور مدرسة براغ وطرح ياكبسون لمفهوم (الشعرية) قد ساعد على الانتقال من مستوى الجملة الى مستوى البنية، فبينما اقتصرت الأسلوبية والتشكلية على المستوى الفردي للتجربة الأدبية والبعد الدلالي متداخلاً مع التأثير الانفعالي في نفس المتلقي، قامت حلقة براغ، والدراسات البنيوية من بعدها، بالانتقال إلى المستوى النحوي العلائقي والنزوع نحو البنية كنظام شمولي من العلاقات الداخلية بين عناصر النص الأدبي، وبذلك ظهرت سلسلة من الدراسات التي تبحث في المستوى الهيكلي العام لنوع معين من النصوص الأدبية، ولعل أوضح مثال على ذلك النوع من النشاط النقدي النظري الدراسات النقدية السردية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الماضي."

وكان من ثمار هذه الدراسات الغربية أن وصلت إلينا مع رياح الحضارة التي هبت علي الشرق مدعومة بالعوامل الآتية :

- ظهور حركات التحرر في كثير من بلدان الشرق وتخلصها من قيود الاستعمار والتقييد والاستغلال .

- الاتصال الوثيق بالغرب ورواد النهضة والإصلاح والمفكرين والأدباء والنقاد الغربيين .

التطور التقني في مجال الطباعة والنشر وتداول الآراء عبر وسائل الاتصال التي صارت تفوق الخيال ونعني بها الانترنيت والأقراص المدمجة والفيديو كمفرنس وغيرها من التقنيات الحديثة .

- ظهور أجيال من المثقفين والأدباء الرواد الذين اخذوا على عاتقهم عبء النهوض بالدراسات اللغوية والنقدية بما أتيح لهم من فرص الدراسة في الغرب والاتصال بينابيع النهضة والثقافة والاطلاع على آخر ما وصل إليه نتاج قرائح الغربيين .

- المؤتمرات والمهرجانات الأدبية والنقدية واللغوية التي تجمع - عادة - بين رواد الفكر والمبدعين فيزداد توهجهم وإبداعهم .

كان من ثمار هذا كله تطور الدراسات اللغوية والنقدية في شرقنا العربي ، والتي نأمل لها الرقي سيرا على نهج علماء اللغة العربية وشيوخها الأفذاذ .

الهوامش

١- ا- د. بشرى موسى صالح :"المرآة والنافذة"، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠١، ص١٦.

٢- بشرى موسى صالح: "المرآة والنافذة"، ص١٣

٣- د. معن الطائي ، (التداولية والنظرية النقدية) مقال أليكتروني عن مجلة الأدب والفن .

٤- كمال أبو ديب: "في الشعريه"، مؤسسة الأبحاث العربية، ط/لبنان ١٩٨٧.